الجانب الروحي للاستشراق الفرنسي وفهمه للتصوف الإسلامي
(رينيه جينو) نموذجًا

د. أحمد خميس زكي مرعي(*)

الملخص

يُعد رينيه جينو (ت١٩٥١م) من أبرز المستشرقين الفرنسيين الذين تأثروا بالشرق الإسلاميّ، لاسيما الجانب الرُوحيّ منه، وأعني به "التصوف الإسلاميّ"؛ إذ يرى أن التصوف الإسلاميّ يقوم على التربية الروحية العرفانية الموصلة إلى اليقين، وقد اعتنق الإسلام وعُرف باسم الشيخ (عبد الواحد يحيى) بعد إسلامه.

وقد قال عنه الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله: إن إسلامه كان ثورة كبرى هزت ضمائر الكثيرين من ذوي البصائر الطاهرة، فاقتدوا به واعتنقوا الإسلام، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصة، تعبد الله على يقين في معاقل الكاثوليكية في فرنسا، وفي سويسرا، يعرفه كل الذين يتصلون اتصالًا وثيقًا بالدراسات الفلسفية الدينية في أوروبا، وفي أمريكا.

وحاول رينيه جينو عن طريق مؤلفاته بيان خطأ الحضارة الغربية في تركيز اهتمامها على الجانب الماديّ وإهمال الجانب الروحيّ في حياة الإنسان؛ مما أدي إلى ما نشاهده اليوم من مظاهر التخريب الروحيّ والانحراف العقائديّ والفكريّ لدى الغرب، وامتدح في الوقت ذاته روحانية الشرق؛ التي تبث في النفوس الطمأنينة الروحية والسكينة القلبية، كما ويرى أنه لا سبيل للغرب في الوصول إلى النجاة إلا بالاقتراب من التعاليم الربانية التي ما تزال حية في الشرق، لا سيما في التصوف الإسلاميّ الأصيل.

الكلمات المفتاحية:

رينيه جينو، الحضارة الغربية، التصوف الإسلاميّ، الاستشراق، الفرنسيّ

(*) أستاذ مساعد الفلسفة الإسلامية بقسم الفلسفة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية.

Abstract

René Guénon (d. 1951 AD) is considered one of the most prominent French Orientalists who was influenced by the Islamic East, especially its spiritual aspect, by which I mean “Islamic Sufism.” He believes that Islamic Sufism is based on mystical spiritual education that leads to certainty. He converted to Islam and was known as Sheikh (Abdul Wahid Yahya) after his conversion to Islam.

Sheikh Abdul Halim Mahmoud, may God have mercy on him, said about him: His conversion to Islam was a major revolution that shook the consciences of many people with pure insight, so they imitated him, embraced Islam, and formed loyal groups of believers that worshiped God with certainty in the strongholds of Catholicism in France and Switzerland. All who communicate knew him. Closely connected to religious philosophical studies in Europe and America.

Through his writings, René Guénon tried to point out the error of Western civilization in focusing its attention on the material aspect and neglecting the spiritual aspect of human life. Which led to the manifestations of spiritual sabotage and ideological and intellectual deviation in the West that we see today, and at the same time praised the spirituality of the East. Which infuses spiritual tranquility and heart tranquility in souls. He also believes that there is no way for the West to achieve salvation except by approaching the divine teachings that are still alive in the East, especially in authentic Islamic Sufism.

key words

René Guénon, Western Civilization, Islamic Sufism, Orientalism, French

تمهيد

يُعد رينيه جينو (ت١٩٥١م) من أبرز المستشرقين الفرنسيين الذين تأثروا بالشرق الإسلاميّ، ولاسيما الجانب الرُوحيّ منه، وأعني به "التصوف الإسلاميّ"؛ إذ يرى أن التصوف الإسلاميّ يقوم على التربية الروحية العرفانية الموصلة إلى اليقين، وقد اعتنق الإسلام وعُرف باسم الشيخ (عبد الواحد يحيى) بعد إسلامه.

وقد قال عنه الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله: إن إسلامه كان ثورة كبرى هزت ضمائر الكثيرين من ذوي البصائر الطاهرة، فاقتدوا به واعتنقوا الإسلام، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصة، تعبد الله على يقين في معاقل الكاثوليكية في فرنسا، وفي سويسرا، يعرفه كل الذين يتصلون اتصالًا وثيقًا بالدراسات الفلسفية الدينية في أوروبا، وفي أمريكا.

ولرينيه جينو الكثير من المؤلفات التي كتبها باللغة الفرنسية وترجمت بعد ذلك إلى اللغة العربية، من أهمها: كتاب (شرق وغرب)، وكتاب (أزمة العالم الحديث)، وكتاب (السلطة الروحية والحكم الزمني)، وكتاب (هيمنة الكم وعلامات آخر الزمان)، وكتاب (التصوف الإسلاميّ المقارن) وهو مجموعة مقالات جمعت ونشرت بعد وفاته، وغيرها، وكان لهذه الكتب وتلك المقالات أبلغ الأثر لدى كثير من الشرقيين والغربيين؛ إذ نجده قد حاول عن طريقها بيان خطأ الحضارة الغربية في تركيز اهتمامها على الجانب الماديّ وإهمال الجانب الروحيّ في حياة الإنسان؛ مما أدى إلى ما نشاهده اليوم من مظاهر التخريب الروحيّ والانحراف العقائديّ والفكريّ لدى الغرب، وامتدح في الوقت ذاته روحانية الشرق؛ التي تبث في النفوس الطمأنينة الروحية والسكينة القلبية.

ويرى رينيه جينو أنه لا سبيل للغرب في الوصول إلى النجاة إلا بالاقتراب من التعاليم الربانية التي لا تزال حية في الشرق، ولا سيما في التصوف الإسلاميّ الأصيل، القادر باستمرار على تكوين الصفوة الروحية في المجتمع، والتي يمكن لها أن تقود الجماهير العريضة نحو السمو الروحيّ، الموصل إلى المعرفة الحقة، ويمكن القول: إن رينيه جينو يمثل بحق الجانب الروحيّ من الاستشراق الفرنسيّ؛ فهو إن كان غربيّ المولد فهو شرقيّ الهوى، ويُعد حلقة هامة من حلقات الوصل والتفاعل الحضاريّ بين الشرق والغرب.

وترجع **أهمية الموضوع** – من وجهة نظري– إلى ضرورة تسليط الضوء على الجهود التي بذلها المستشرق الفرنسيّ رينيه جينو في إبراز أهمية الحياة الروحية للإنسان، ولاسيما التصوف الإسلاميّ، وأثر ذلك في انتقاده الحضارة الغربية الحديثة في ماديتها التي سوف تدفع بهم إلى الهاوية ما لم تعد إلى الإيمان بأهمية الدين والحياة الروحية مرة أخرى.

الدراسات السابقة هناك عدة دراسات اهتمت بفكر رينيه جينو، ومنها: الدراسة القيمة التي قام بها فضيلة الإمام الدكتور عبد الحليم محمود في كتاب " الفيلسوف المسلم عبد الواحد يحيى"، كما أفرد له فضيلة الإمام فصلًا من كتابه " قضية التصوف المدرسة الشاذلية" بعنوان: "العارف بالله عبد الواحد يحيى"، وقد عرض فيهما جانبًا من حياة رينيه جينو، وبيان أهم أفكاره إجمالًا، والتي استخلصها فضيلة الإمام من مطالعة كتبه، وأيضًا قامت الدكتورة زينب عبد العزيز بشرح جانب من مقالات رينيه جينو في كتاب لها بعنوان " مقالات رينيه جينو"، أيضًا الدراسة التي قام بها عبد الباقي مفتاح لأفكار رينيه جينو في مقدمة الترجمة التي قام بها للكثير من كتب المستشرق الفرنسيّ رينيه جينو، ومنها ترجمة "أزمة العالم الحديث"، وأيضًا الدراسة التي قام بها الدكتور أسامة شفيع السيد رحمه الله في مقدمة الترجمة التي قدمها لكتاب "شرق وغرب" لرينيه جينو.

ولكني لم أجد في هذه الدراسات ما يسلط الضوء على الجانب الروحيّ عند رينيه جينو، وأثر ذلك في التصوف الإسلاميّ؛ إذ إن كل هذه الدراسات قد تناولت أفكار رينيه جينو إجمالًا.

والإشكالية التي انطلقت منها: تتمثل في الكيفية التي تناول رينيه جينو من خلالها نقده الحضارة الغربية الحديثة، وأثر ذلك في التصوف الإسلاميّ.

وقد كانت **هناك تساؤلات** كثيرة حاولت الإجابة عنها في أثناء هذا البحث، ومن أهمها:

- ما الأسباب التي دعت رينيه جينو إلى انتقاد الحضارة الغربية الحديثة؟
- ما مفهوم التصوف الإسلاميّ عند رينيه جينو؟ وهل يتفق ذلك المفهوم مع حقيقة التصوف لدى الصوفية؟
- ما المنهج الذي حدده رينيه جينو لتربية المريدين تربية روحية صحيحة؟
- هل يمكن نجاة الحضارة الغربية الحديثة من الهلاك؟ وما السبيل إلى ذلك؟
- وهل يمكن القول: إن رينيه جينو كان متصوفًا حقًا أم أنه كان فيلسوفًا مثاليًا حاول تغيير الواقع؟
- كيف يمكن الإفادة من آراء رينيه جينو الروحية في الوقت الحاليّ؟

أما عن **المنهج المستخدم** فقد استخدمت في هذا البحث منهجًا تحليليًا نقديًا مقارنًا.

وقد اشتمل هذا البحث على تمهيد أوضحت فيه أهمية الموضوع، وعرضت فيه جانبًا موجزًا عن الدراسات السابقة، والإشكالية التي انطلقت منها، وأهم التساؤلات، والمنهج المستخدم، **وقد جاءت عناصر هذا البحث كالآتي:**

أولًا- نبذة عن حياة رينيه جينو أو الشيخ (عبد الواحد يحيى)

ثانيًا- انتقاد الحضارة الغربية في ماديتها.

ثالثًا- التصوف والعلم العرفانيّ أو "اللدُنيّ".

رابعًا- منهج التربية الروحية السوية.

خامسًا- لا نجاة للأفراد أو المجتمعات إلا بعودة الحياة الروحية الحقيقية والتي يُعد التصوف أبرز مظاهرها

وقد **اختتمت هذا البحث بأهم النتائج** التي توصلت إليها عن طريق الإجابة عن التساؤلات التي جاءت في مستهل هذا البحث.

أولًا- نبذة عن حياة رينيه جينو أو الشيخ (عبد الواحد يحيى)

ولد رينيه جينو في ١٥ نوفمبر عام ١٨٨٩م بمدينة "بلوا" بفرنسا، من أسرة فرنسية كاثوليكية ميسورة الحال، بدأ تعليمه في إقليمه الذي نشأ فيه، وكان متفوقًا على أقرانه، وأتم شهادة البكالوريا عام ١٩٠٤م، ثم حصل على الليسانس في الآداب قسم الفلسفة من جامعة السوربون عام ١٩١٥م (محمود، ١٩٩٩، ص ٢٨٨).

كان جينو متطلعًا إلى المعرفة، ولا سيما الروحية منها؛ لذلك نراه قد انتسب إلى الكثير من المدارس الدينية المختلفة ذات الطابع العرفانيّ؛ والتي كانت منتشرة في باريس في ذلك الوقت؛ ليدرس تعاليمها ويعرف ما تمتاز به من تربية روحية، وقد كانت صلته الوثيقة بهذه المدارس هي السبب المباشر في انفصاله عنها؛ فقد أدرك الغث منها والسمين، وهدته بصيرته النافذة ورأيه القويم إلى أن أكثر هذه المدارس لا تُكسب تربية روحية حقيقية؛ بل هي شكلية سطحية لا تصل بالإنسان إلى حقيقة المعرفة (محمود، ١٩٩٩، ص ٢٩٠-٢٩١).

التقى رينيه جينو بالكثير من المستشرقين الفرنسيين الذين اعتنقوا الإسلام وتأثر بهم مثل: العالم الفرنسيّ (شمبرينو)، والفنان (إيفان جوستاف) من أصل فنلنديّ، وغيرهما،

وكل منهما كان لديه نزعة صوفية، وفي عام ١٩١٢م اعتنق رينيه جينو الإسلام بعد لقائه بالشيخ عبد الرحمن عليش العالم المغربيّ الكبير الذي درس بالأزهر الشريف، وانتسب إلى الطريقة الشاذلية، وقد جمع الشيخ عليش بين الحقيقة والشريعة، وكان شيخ الطريقة آنذاك، وهو الذي فتح السبيل أمام جينو، ومهد له الطريق لاعتناق الإسلام، وتسمى باسم "عبد الواحد يحيى" (محمود، ١٩٩٩، ص ٢٩٠-٢٩٣).

وتُعد دراسة رينيه جينو للكثير من المدارس الروحية في فرنسا، والتقائه بالعديد من المستشرقين الذين اعتنقوا الإسلام، ومعرفته بعلماء الأزهر الشريف، لاسيما شيخ الطريقة الشاذلية في مصر آنذاك، من أهم المصادر التي كان لها عظيم الأثر في المسلك الروحيّ الذي نزع إليه رينيه جينو.

يقول الإمام عبد الحليم محمود عنه: "إن سبب إسلامه كان بسيطًا ومنطقيًا في آن واحد؛ لقد أراد أن يعتصم بنص مقدس، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فلم يجد – بعد دراسة عميقة- سوى القرآن؛ فهو الكتاب الوحيد الذي لم ينله التحريف، ولا التبديل؛ لأن الله تكفل بحفظه، فاعتصم به، وسار تحت لوائه، فغمره الأمن النفسيّ" (محمود، ١٩٧٣، ص ٧٨).

تزوج رينيه جينو بعد ذلك من فتاه فرنسية كاثوليكية، وقد استمر هذا الزواج إلى أن توفت زوجته عام ١٩٢٨م، وفي عام ١٩٣٠ سافر إلى القاهرة؛ لتحقيق بعض النصوص الصوفية ودراستها، ولكنه استقر بمصر وأقام على مقربة من الجامع الأزهر، وفي عام ١٩٣٢م صاحب الشيخ محمد إبراهيم، وتزوج من ابنته عام ١٩٣٤م، وانتقل إلى حي الدقي بعد ذلك، واستمر يرسل المقالات إلى فرنسا، وينشر الكتب التي تعبر عن وجهة نظره المتأثرة بالحياة الروحية في الإسلام وأعني بها التصوف إلى أن وافته المنية في يناير عام ١٩٥١م (محمود، ١٩٩٩، ص ٢٩٦-٢٩٩).

ألف رينيه جينو أو الشيخ "عبد الواحد يحيى" حوالي ٢٧ كتابًا كلها باللغة الفرنسية، وقد ترجمت بعد وفاته، من أهمها "شرق وغرب" ١٩٢٤م، وكتاب "مليك العالم" ١٩٢٧م، و"أزمة العالم الحديث" ١٩٢٩م، و"السلطة الروحية والحكم الزمني" ١٩٢٩م، و"مراتب الوجود" ١٩٣١م، و"الميتافيزيقا الشرقية" ١٩٣٩م، و"هيمنة الكم وعلامات آخر

الزمان" ١٩٤٥م، و"مبادئ حساب المقادير اللامتناهية في الصغر" ١٩٤٦م، و"نظرات في التربية الروحية" ١٩٤٦م، و"السلوك والتحقق الروحانيّ" نشر بعد وفاته ١٩٥٢م، ولمحات في التصوف الإسلاميّ المقارن" نشر بعد وفاته ١٩٧٣م (جينو، ٢٠١٣م، ص مقدمة الكتاب ن – ط بقلم المترجم).

وصف الشيخ عبد الحليم محمود إسلام رينيه جينو بأنه كان ثورة كبرى هزت ضمائر الكثيرين من ذوي البصائر الطاهرة؛ فاقتدوا به واعتنقوا الإسلام، وكونوا جماعات مؤمنة مخلصة، تعبد الله على يقين في معاقل الكاثوليكية في فرنسا، وفي سويسرا؛ فهو رجل يعرفه كل الذين يتصلون اتصالًا وثيقًا بالدراسات الفلسفية الدينية في أوروبا، وفي أمريكا، كما أنه من الشخصيات التي أخذت مكانتها في التاريخ، يضعه المسلمون بجوار الإمام الغزاليّ وأمثاله، ويضعه غير المسلمين بجوار أفلوطين صاحب الأفلاطونية المحدثة، وأمثاله (محمود، ١٩٩٩، ص ٣٠١).

هذه كانت نبذة مختصرة عن حياة رينيه جينو وأهم أعماله، أما عن الجانب الروحيّ في أعمال جينو – من وجهة نظري_ فيمكن أن تتضح من انتقاده الحضارة الغربية الحديثة؛ لماديتها وخلوها من الروحانية، كما أن التصوف لديه هو الموصل إلى الأسس الأصلية والمبادئ الكلية للحقائق الإلهية والمعارف الميتافيزيقية، ويرى أن التربية الروحية السوية هي الكفيلة بأن توصل صاحبها إلى الغاية المنشودة وهي تحقيق الكمال، والوصول إلى المعرفة الحقة، ويرى كذلك أنه لا نجاة للأفراد أو المجتمعات إلا بعودة الحياة الروحية المتمثلة في التمسك بالدين الذي يحتوي على المعارف الحقة، ويعد التصوف أبرز مظاهره.

ثانيًا- انتقاد الحضارة الغربية الحديثة في ماديتها

انتقد رينيه جينو اتجاهات الحداثة المناقضة للدين الإلهيّ وللطريق الموصل إليه المتمثل في العرفان الصوفيّ أو التصوف في مواضع شتى، ولاسيما (الشرق والغرب) و(أزمة العالم الحديث)، و(السلطة الروحية والحكم الزمنيّ)، و(هيمنة الكم وعلامات آخر الزمن)؛ إذ يقول: "إن في مسار التاريخ، تظهر الحضارة الغربية الحديثة بوصفها شذوذًا حقيقيًا؛ فهي الوحيدة من كل الحضارات المعروفة لدينا، التي تطورت في اتجاه

ماديّ بحت؛ وهذا التطور غير السويّ، الذي تطابقت بدايته مع ما اتفق على تسميته عصر النهضة، صاحبه ما كان حتمي الوقع، وهو ارتداد في الميدان العرفانيّ متناسب مع ذلك التطور، وقد بلغ انحطاط هذا الارتداد حدًا جعل الغربيين اليوم لا يعرفون ما يمكن أن يكون العرفان الخالص؛ بل لا يخطر ببالهم إمكانية وجوده" (جينو، ٢٠١٦، ص ٥٥)، أيضًا (جينو، ٢٠١٤، ص ٧).

وقد تركز انتقاد رينيه جينو للغرب في عدة أمور منها: اللهفة وراء التطور الماديّ المبتور عن كل ترق روحيّ، وتقديس الفكر مقطوع الصلة عن الوحي الإلهيّ، والتكديس والتكاثر للتقنيات والعلوم المادية من دون اعتبار لأصولها العلوية الإلهية، والتمسك بأخلاقيات سطحية فقدت أصولها العرفانية (جينو، ٢٠١٦، ص مقدمة الكتاب خ).

ويوافق رينيه جينو الشرقيين الذين يلومون أصحاب الحضارة الغربية؛ لكونها لا تعدو أن تكون سوى حضارة مادية فقط؛ إذ هي بالفعل لم تتطور إلا في هذا الاتجاه الماديّ فقط، وإذا نُظر إلى هذه الحضارة من أي جهة كانت، لا نشهد دومًا سوى التبعات المباشرة لهذه المادية؛ ولذلك نجد أن التطور الذي حدث للعلم بشكل عام في أثناء القرون الأخيرة، ما هو إلا بحث في العالم الماديّ فقط، ومناهجه لا توصف بالعلمية إلا لأنها لا تقبل التطبيق إلا في هذا الميدان الماديّ فقط، وهذا يعني إنكار كل علم لا يتعلق بالأشياء المادية (جينو، ٢٠١٧، ص٩٣-٩٤).

وقد أدى هذا الأمر بالغربيين في العصر الحديث إلى عدم الاعتراف بوجود شيء غير ما يمكن رؤيته أو لمسه، وحتى لو اعترفوا نظريًا بوجود شيء آخر، فهم يسارعون إلى الإعلان أنه ليس مجهولًا فقط؛ بل لا يمكن معرفته؛ مما يعفيهم من الاهتمام به، وإن وجد من بينهم من يحاول تصور فكرة عن عالم آخر غير ماديّ، معتمدين على تخيلاتهم؛ فهم يتصورونه في صورة محسوسة على شاكلة العالم الأرضيّ، وينقلون إليه كل الأوضاع الوجودية الأرضية، بما فيها تصورهم عن المكان والزمان الذي لا يخلو من الجسمانية، بل إن بعض الفلاسفة مثل: "كانط" ذهب إلى حد إعلان أن كل ما لا يقبل التمثيل الماديّ لا يمكن تعقله أو التفكير فيه؛ ولهذا فكل ما يطلق عليه لفظ " روحانيّ" أو "مثاليّ" لا يعدو في أغلب الأحيان أن يكون شكلًا من أشكال المادية المنقولة أو المحورة (جينو، ٢٠١٧، ص ٩٥).

ويمكن القول: إن المحدثين الغربيين عامة لا يتصورون وجود أي علم سوى العلم بالأشياء التي تقاس وتحسب وتوزن؛ أي التي لا تخرج عن جملة الأشياء المادية؛ لأنها الوحيدة التي يمكن أن تخضع للتقدير الكميّ، وعُدَّ ذلك عندهم من أبرز مزايا العلم الحديث، ووصل الأمر إلى حد فهم أن إمكانية إخضاع الأشياء للقياس لا تعتمد إلا على خاصية ملازمة للمادة، وهي خاصية الانقسام اللامحدود، والظن أن هذه الخاصية تشمل كل ما في الوجود من أشياء مادية فقط (جينو، ٢٠١٧، ص ٩٧).

ويرى رينيه جينو أن وجهة نظر المحدثين الغربيين في العلم الحديث قادتهم بالفعل إلى إحراز تطور في المجال الصناعيّ، ولكن هذ التقدم الماديّ كان على حساب الجانب الروحانيّ في حياة الإنسان، وأبرز مثال لذلك هو ما شهده التطور الصناعيّ من إتقان متزايد ومستمر للمعدات الحربية وقدرتها الهائلة على التدمير الشامل؛ إذ إن الحروب بدلًا من أن تدور بين جيوش قليلة العدد، ومؤلفة من جنود محترفين فقط، فقد أصبحت تستهدف جميع أفراد المجتمع بلا تمييز، بمن فيهم أقلهم كفاءة للقيام بتلك الوظيفة؛ بل فيهم ما لا يحصى من المدنيين الأبرياء العاجزين من الأطفال والنساء والشيوخ الذين ليس لهم أي علاقة بصراع المتسببين في تلك الحروب، وهذا وحده كفيل بتبديد أحلام المثاليين الحالمين بالمسالمة ورفض العنف (جينو، ٢٠١٧، ص١٠٠-١٠١).

ويلاحظ رينيه جينو أنه إذا سلمنا- من وجهة نظر نسبية جدًا- بأن للتطور الماديّ بعض الفوائد؛ فإن رؤية النتائج كالتي كنا بصدد الحديث عنها في المثال السابق، تجعلنا نتساءل عما إذا كانت قد تجاوزتها الخسائر الفادحة بقدر كبير، ولسنا نتكلم هنا عن كل ما ضُحى به في سبيل هذا التطور المنحصر في المادة، وهو بلا أدنى شك أنفس وأسمى؛ كما لا نتكلم عن المعارف العليا التي نُسيت، ولا عن المستوى العرفانيّ الذي حُطم، ولا عن الروحانية التي اختفت؛ بل إذا نظرنا إلى الحضارة الحديثة في حد ذاتها، وقارنا بين المزايا والرزايا الناتجة عنها، فالنتيجة النهائية تكون سالبة من دون أدنى شك، فالمزايا المزعومة التي يكثر التبجح بها لِما اصطلح على تسميته "التقدم" – على الرغم من أنه تقدم ماديّ فقط- فهي مزايا وهميّة ومشكوك فيها (جينو، ٢٠١٧، ص ١٠٢).

ويؤكد رينيه جينو أن التقدم الماديّ الذي أحرزته الحضارة الغربية الحديثة، والتي يشعر أنصارها أنها تبهجهم؛ لأنها تجعل حياتهم أفضل، وتحسن من مستوى معيشتهم، وتحقق لهم الرفاهية ومن ثمَّ صاروا أسعد مما كانوا عليه، بأنهم مخدوعين؛ إذ إن حياتهم أمست أكثر اضطرابًا وتعقيدًا؛ ذلك لأن عدم التوازن بين الجانب الماديّ والجانب الروحيّ في حياة الإنسان لا يوفر له سعادة حقيقية، هذا بالإضافة إلى أنه كلما كثرت احتياجات الإنسان، زاد احتمال فقدانه شيئًا ما، ويكون ذلك سببًا لشقائه، والحضارة الحديثة تهدف إلى مضاعفة الاحتياجات المصطنعة، وهي تبدع باستمرار حاجات لا يمكن تلبيتها؛ لأنه بمجرد الانطلاق في هذا المسار يصعب جدًا التوقف فيه، بل لا وجود لأي سبب يبرر الوقوف عند نقطة معينة، بينما كان الناس في الماضي لا يشعرون بأي ألم حينما لم يكن لديهم أشياء لم توجد في زمانهم، ولم يكن أبدًا يتصورونها؛ أما الآن فعلى العكس، هم يشعرون بالتعاسة حينما يكونون مفتقدين لهذه الأشياء، لكونهم اعتادوا على جعلها ضرورية، وقد أصبحت حقًا يجب الحصول عليه بالنسبة لهم؛ ولهذا فهم يجهدون أنفسهم بكل الوسائل؛ لاكتساب ما يمكن أن يوفر لهم كل حاجاتهم المادية؛ لأنها هي الوحيدة التي تمكنهم من الاستمتاع؛ وأصبح لا هَمَ لهم إلا ربح المال؛ لأنه هو الذي يتيح اكتساب الأشياء، وكلما زاد نصيبهم منه، تضاعفت لهفتهم عليه؛ لاكتشافهم باستمرار حاجات متجددة ترغب فيها نفوسهم، وهذا الشغف يصبح عندهم هو الهدف الوحيد للحياة كلها (جينو، ٢٠١٧، ص ١٠٤).

ويعتقد رينيه جينو أنه إن قُدِّرَ للحضارة الحديثة أن تنهار يومًا ما؛ نتيجة انغماس معظم الناس في الحياة المادية؛ فإن ذلك يُعد هو العقاب العادل ورد الفعل المناسب لما صنعته تلك الحضارة بنفسها من عدم إقامة توازن بين الجانب الماديّ والجانب الروحيّ في حياة الإنسان، والانسياق التام وراء وهم التقدم والرفاهية المادية فقط؛ إذ إن العالم الحديث بحضارته المادية، بحكم طبيعتها، يثير النزاع والانقسام في كل مكان، وطبيعته المادية سوف تؤدي إلى نهاية مأسوية لهذا العالم مالم يحصل عاجلًا تحول جذريّ في اتجاه مساره، فضلًا عن تغيير حقيقيّ إلى عكس ما هو عليه في الوقت الحاليّ؛ أي بالتوجه إلى الجانب الروحيّ في الإنسان المتمثل في الدين الإلهيّ والذي يُعد العرفان الصوفيّ بابًا له (جينو، ٢٠١٧، ص ١٠٥).

والحقيقة أنني اتفق مع رينيه جينو في انتقاده الحضارة الغربية في ماديتها، والقول: إن هذه المادية سوف تؤدي بالحضارة الغربية إلى نهاية محتومة وهي الهلاك، ويحضرني هنا ما قاله المفكر الإسلاميّ محمد إقبال (ت١٩٣٨م) الذي انتقد الغرب أيضًا للسبب ذاته؛ إذ يقول: "إن الرجل العصريّ- يقصد به الأوروبيّ- بما له من فلسفات نقدية وتخصص علميّ، يجد نفسه في ورطة؛ إذ إن مذهبه الطبيعيّ الماديّ قد جعل له سلطانًا على قوى الطبيعة لم يسبق إليه، لكنه قد سلبه إيمانه في مصيره هو، هذا الإنسان قد أعشاه نشاطه العقليّ، فكف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة، التي تتغلغل في أعماق النفس؛ فهو في حلبة الفكر في صراع صريح مع نفسه، وهو في مضمار الحياة الاقتصادية والسياسية في كفاح صريح مع غيره" (إقبال، ٢٠١٠، ص ٢٤٥).

ويبرز إقبال مدى سيطرة المادة على حياة الإنسان الغربيّ، وكيف جعلته مقطوع الصلات بأعماق وجوده، وكيف ألحقت به أضرارًا كان لها أثرها السيئ فيه؛ فيقول: "إن الإنسان الأوروبيّ غير قادر على كبح جماح أثريته الجارفة، وحبه الطاغي للمال، وهو أمر يؤدي إلى قتل كل ما فيه من نضال سامٍ شيئًا فشيئًا، ولا يعود عليه إلا التعب في الحياة، وقد استغرق في الواقع الماديّ، أي في مصدر الحس الظاهر للعيان، فأصبح مقطوع الصلات بأعماق وجوده، تلك الأعماق التي لم يسبر غورها بعد، وأخف الأضرار التي أعقبت فلسفته المادية هو ذلك الشلل الذي اعترى نشاطه الروحيّ" (إقبال، ١٩،ص ٢٤٥)، هذا ما انتهى إليه رينيه جينو أيضًا.

ويمكن القول: إن رينيه جينو قد انتقد الحضارة الغربية الحديثة لعدة أسباب منها: أن هذه الحضارة قد أطاحت بتدرج القيم في المجالات كافة، وقللت من شأن المجال الفكريّ النظريّ، وبالغت في أهمية كل من المجال الماديّ والعاطفيّ، وكأن الإنسان الغربيّ قد فقد البصر والبصيرة؛ فلم يعد مدركًا كثافة المادة المعتمة، ولا نور الجوهر الصافي؛ لذلك أصبح يفتقد المبادئ الروحية الأصيلة المتوارثة؛ فلم يعد لديه وحدة في المقياس؛ بل التشتت والحكم على الأشياء بظاهرها، وكلاهما يؤديان إلى تدمير الفكر كلية، وأصبح الغرب لا يؤمن بأي مبدأ علويّ، بل إن الحضارة الغربية الحديثة قائمة

على إنكار المبادئ العليا؛ لذلك لم يعد يمتلك أي وسيلة للتفاهم مع الحضارات ذات الطابع الروحيّ الأصيل، فقد تم تجريد كل شيء من أي طابع مقدس أو روحيّ، وبذلك انحط مستوى المعيشة إلى كل ما ليس له قيمة حقيقية في الحياة، وأصبح لا يفكر إلا في كل ما هو ماديّ ونفعيّ، وهو أمر له خطورته؛ إذ إن مثل هذه الحضارة القائمة على المادة وحدها، نجاحها لا يمكن إلا أن يكون عابرًا؛ إذ إن قانون المادة هو التغير وعدم الاستقرار، وهو أمر يقودها إلى الفناء في نهاية المطاف (عبد العزيز، ١٩٩١، ص ١٠-١٢).

ولما كان الحال كذلك فإنني أتفق في الرأي مع ما انتهى إليه رينيه جينو من أن الاهتمام بالجانب الماديّ على حساب الجانب الروحيّ في حياة الإنسان سوف يؤدي به إلى الهلاك، والحل من وجهة نظر جينو يتمثل في اهتمام الإنسان بالحياة الروحية، ولا سيما التصوف الذي يعد هو الأساس لكل معرفة حقة قد يصل إليها الإنسان؛ فإذا كانت الظروف الغارقة في المادية التي يوجد فيها الغرب قد أبعدته عن المجال الدينيّ، وكل ما يتعلق به من تواصل روحيّ؛ فإن الحياة الروحية التي تُعد مجال المعرفة الحقيقية لا تزال حية في الشرق بفضل التصوف.

ثالثًا- التصوف والعلم العرفانيّ أو "اللدنيّ"

يفرق رينيه جينو بين العلم العرفانيّ أو "اللدنيّ"، والعلم الظاهريّ أو الماديّ؛ إذ إن العلم العرفانيّ ينظر في المقام الأول إلى الغاية العليا، وهي الوصول إلى المعارف الحقة؛ لذلك لا يمنح قيمة للغايات الأدنى إلا من حيث انسجامها مع الغاية العليا، في حين أن العلم الظاهريّ الماديّ لا ينظر إلا إلى الغايات الأدنى؛ لعجزه عن تجاوز المجال الماديّ الذي يرجع إليه، ويدعي انحصار كل حقيقة في مجاله الماديّ فقط (جينو، ٢٠١٣، ص ٤).

والتصوف هو الموصل إلى العلم العرفانيّ أو "اللدنيّ" عند رينيه جينو؛ فعن طريقه يصل الإنسان إلى معرفة الأسس والمبادئ الكلية للحقائق الإلهية والمعارف الميتافيزيقية؛ والتي تخلص الإنسان من ماديته، أو على أقل تقدير تعيد للإنسان توازنه بين ما هو ماديّ وما هو روحيّ في حياته؛ لذلك نراه يهتم ببيان حقيقة التصوف،

والفرق بينه وبين الشعائر الظاهرة للدين الإسلاميّ؛ إذ يرى رينيه جينو أن التصوف الإسلاميّ ليس نابعًا من خارج الدين الإسلاميّ، بل هو مكمل لجوهره، وهو يُعد علمًا باطنيًا، يقوم جوهره على التربية الروحية العرفانية للمريدين، ولا ينفصل عن ظاهر الشريعة؛ فالعقيدة الإسلامية تمتاز عن غيرها من العقائد الأخرى بتفرقتها بين " الظاهر والباطن"؛ أي "الشريعة والحقيقة" أو "القشر واللُب" بلغة الصوفية، الشريعة يشترك فيها كل من ينتمي إلى هذا الدين، في حين أن الحقيقة للصفوة؛ إذ لا يملك جميع الأفراد الاستعداد أو المؤهلات اللازمة لبلوغ " الحقيقة"، والشريعة هي القاعدة والأساس للعمل في الدين الإسلاميّ، بينما الحقيقة هي السبيل؛ للوصول إلى المعرفة الخالصة المتمثلة في المعارف الربانية (جينو، ٢٠١٣، ص ١٩).

وتتضح صحة نظرة جينو إلى الصوفية من تأكيد الصوفية أنفسهم على الارتباط القائم بين العلم الظاهر وبين العلم الباطن في العقيدة الإسلامية؛ إذ يقولون: إن علم الشريعة يدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة، الظاهرة هي أعمال الجوارح مثل: العبادات والمعاملات، والباطنة هي أعمال القلوب مثل: المقامات والأحوال، ولا يستغنى الظاهر عن الباطن، ولا الباطن عن الظاهر (الطوسيّ، ١٩٦٠، ص ٤٣-٤٤).

والأمر لا يقتصر على مجرد التفرقة بين الظاهر والباطن، ومعرفة أن الباطن يتضمن الوصول إلى الحقائق العليا الإلهية فقط عند رينيه جينو؛ إذ إن هناك ارتباطًا بين الحقيقة والسبل المعدة الموصلة إليها، وهي المسماة "بالطريقة" عند الصوفية؛ والطريقة هي: المسار أو المسلك الذي يساعد المريد على الوصول إلى الحقيقة انطلاقًا من الشريعة (جينو، ٢٠١٣، ص ١٩).

والحقيقة عند رينيه جينو هي التي تعطي للشريعة معناها السامي والعميق؛ بل هي التي تبرر وجود الشريعة؛ فالشريعة بمنزلة الدائرة، والحقيقة بمنزلة المركز بالنسبة لمحيطها، والطريقة تمثل الشعاع المنطلق من هذا المحيط إلى مركزها، وكل نقطة من محيط الدائرة يمكن أن ينطلق منها شعاع موصل إلى مركزها، ويمكن القول: إن هذه الأشعة تمثل الطرق المختلفة التي يخوضها المريدون في طريقهم إلى الله تعالى وفق درجة استعدادهم؛ لذلك فالطرق الصوفية كثيرة ومتباينة، ولكن هدفها واحد؛ إذ لا وجود إلا لمركز واحد للدائرة وهو " الحقيقة" (جينو، ٢٠١٣، ص ٢٠).

ويؤكد رينيه جينو أن اختلاف البدايات بين المريدين عند بداية سلوك الطريق، تمحى وتزول بزوال الآنية الخاصة بكل واحد منهم حين الوصول إلى المقامات العليا في رحلتهم الروحية؛ إذ يتخلى المريد عن صفاتيه البشرية؛ لكي يتحلى بالصفات الربانية؛ فيكون البقاء بعد الفناء، ويتحقق العبد بصفات الربوبية (جينو، ٢٠١٣، ص ٢٠).

والصوفيّ هو الذي وصل إلى نهاية رحلته الروحية وتحقق بالصفات الربانية، ولكن لا ينبغي له أن يطلق على نفسه اسم "صوفيّ"؛ إذا إن ذلك يُعد جهلًا منه، وهذا يبرهن على أنه ليس بصوفيّ حقيقة؛ لأن هذا النعت سر بين الصوفيّ الحقيقيّ وبين الله تعالى، ويمكن فقط أن يقول عن نفسه أنه متصوف وليس بصوفيّ؛ إذ إن الصوفيّ الحقيقيّ هو الحائز على الحكمة الإلهية، وبعبارة أخرى هو "العارف بالله"؛ لأنه لا يعلمه إلا هو؛ وهذه هي الدرجة العظمى الجامعة في معرفة الحقيقة عند الصوفية (جينو، ٢٠١٣، ص ٢١).

التصوف الإسلاميّ عند رينيه جينو إذًا ليس مجرد علمًا نظريًا يمكن أن يؤخذ من مطالعة الكتب على طريقة العلوم المألوفة عند العوام من الناس؛ ولا يمكن أن يصبح الإنسان متصوفًا بمجرد قراءة ما كتبة كبار الصوفية عن التصوف؛ إذ إن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد حافز يساعده على الإعداد للمعرفة الحقيقية؛ بل إنها غالبًا ما تبقى مستعصية على الفهم لمن هم " غير مؤهلين"؛ أي ليس لديهم الاستعداد لسلوك الطريق، ولا يُغني عن هذا الاستعداد الخاص أي اجتهاد مكتسب؛ لذلك لابد للمريد من الانتساب إلى إحدى الطرق الصوفية السوية، ولا يتأتى ذلك الأمر إلا بوجود مرشد روحيّ هو شيخ الطريقة الذي يعينه على اكتشاف عثرات الطريق، ويمده بالبركة الروحية؛ التي تساعده على الارتقاء من درجة روحية إلى أخرى – على قدر طاقة ودرجة استعداده– إلى أن يصل إلى قمة المدارج الروحية العرفانية، وهي درجة "الولاية الربانية"؛ حيث فناء الصفات البشرية، والتحقق بالصفات الربانية؛ التي تبقى فيكون الصوفيّ في ديمومة مطلقة يسمو على كل القيود البشرية، ويتعالى عن كل وجود عارض وعابر، وذلك هو مقام الصوفيّ الحقيقيّ، وليس من يدعيه (جينو، ٢٠١٣، ص ٢٦).

وأرى أن رأي رينيه جينو في التصوف يدل على معرفته التامة، وتأثره الروحيّ بالتصوف الإسلاميّ؛ فها هو يقرر أن التصوف الإسلاميّ نابع من داخل البيئة الإسلامية ذاتها وليس التصوف أمرًا خارجًا عنها، وفي ذلك مخالفة منه لرأي أغلبية المستشرقين الباحثين في التصوف الإسلاميّ الذين يرجعونه إلى تأثره بعوامل خارجية، كالتأثر بالعقيدة المسيحية أو الأفلاطونية المحدثة، أو حتى التصوف الهنديّ والفارسيّ، مثل: جوبينو، وجولد تسيهر، ونيكليسون، وريتان، وغيرهم (محمود، ١٩٨٩، ص ١٩٠)، وأيضًا (جعفر، ٢٠٠٧، ص ٢٤٤)، وأيضًا (عون، ١٩٨٣، ص ٥٦).

وقد دعا رينيه جينو كذلك إلى ارتباط الشريعة بالحقيقة، وعدم جواز الفصل بينهما هو أمر أقره كبار الصوفية، على سبيل المثال: يقول القشيريّ(ت٤٦٥هـ): "الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة غير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة غير مقبول؛ فالشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق" (القشيريّ،١٩٨٩، ص ١٦٨).

ويشير رينيه جينو أيضًا إلى الاختلاف الحاصل بين الصوفية تبعًا لاختلاف طرقهم ومشايخهم من دون أن يؤثر ذلك في الغاية المرجوة من تصوفهم؛ إذ إن الهدف لدى كل واحد منهم؛ هو الوصول إلى الحقائق الإلهية، ويؤكد الدكتور أبو العلا عفيفي هذ الأمر؛ إذ إن هناك اختلافًا بين مشايخ هذه الطرق في تفصيل التكاليف العملية في الطريق الصوفيّ من دون أن يؤدي ذلك إلى اختلاف فيما بينهم في أمر العقيدة، طالما أنه يُعد طريقًا ناجحًا موصلًا إلى مطلوبهم، وهو المعرفة والشهود (عفيفي،٢٠١٧، ص ٢٥٨-٢٥٩).

وقد أدرك رينيه جينو أن التصوف لا يمكن أن يؤخذ من مطالعة الكتب نظريًا، ولكن التصوف هو علم عمليّ باطنيّ يقوم على الأخلاق وتبديل الصفات؛ يقول أبو الحسين النوريّ (ت٢٩٥هـ): "ليس التصوف رسومًا، ولا علومًا، ولكنه أخلاق" (السُلميّ، ١٩٨٩، ص ٥٢)، أيضًا (الهجويريّ،١٩٧٤، ص ٢٣٧)، ويقول الغزاليّ بعد أن درس كتب الصوفية (ت٥٠٥هـ): " وظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق وتبديل الصفات" (الغزاليّ، ٢٠١٤، ص ١٣٢).

وأطلق رينيه جينو على ما يحدث للسالك من تبديل للصفات في بداية رحلة صعوده الإيمانية اسم "الولادة الثانية"، وهي لا تكون إلا بعد موت يحدث له؛ إذ يرى أن الانخراط في السلوك يوصف عامة بأنه ولادة ثانية، غير أن هذه الولادة تستلزم بالضرورة الموت عن عالم الغفلة الدنيويّ (جينو، ٢٠١٤، ص ١٦٧).

ولما كان الحال كذلك فإنني أرى أن رينيه جينو قد أدرك حقيقة التصوف؛ إذ إن التصوف في حقيقته سلوك عمليّ لا أقوال نظرية، كما أن التصوف يلتمس في حياة الصوفية أنفسهم، لا في منطقهم كما فرق رينيه جينو بين ما ينبغي أن يكون عليه الصوفيّ الحق صاحب الوصول، وبين المتصوف المدعي صاحب الأصول؛ لذلك يضع منهجًا للتربية الروحية لمن أراد أن يسلك الطريق الصوفيّ.

رابعاً- منهج التربية الروحية السوية.

التربية الروحية السوية عند رينيه جينو هي الكفيلة بأن توصل صاحبها إلى الغاية المنشودة وهي تحقيق الكمال؛ لذلك وضع ثلاثة شروط لابد من تحققها فيمن يريد أن يسلك الطريق الصوفيّ: الأول- الأهلية (الاستعداد)، والثاني- الارتباط بسلسلة روحية (الانتساب لطريقة)، والثالث- المجاهدة.

١-الأهلية (الاستعداد):

والأهلية هي نوع من الاستعداد أو (اللياقة الفطرية)، التي بغيابها يبقى كل اجتهاد يقوم به المريد بلا أي جدوى؛ إذ إن المريد لا يمكنه أن يطور سوى القدرات التي يحملها في ذاته منذ ولادته، وهذا هو الاستعداد الذي يهيئ المريد للدخول في الطريق الصوفيّ (جينو، ٢٠١٤، ص١٩)، ويوضح رينيه جينو هذا الأمر بقوله: إذا كانت "الأهلية" تتعلق بالتربية الروحية، فما يكتسبه الفرد بالتعلم من خارج ذاته ليس له هنا أي قيمة مهما كانت كمية المفاهيم التي يمكن للفرد تكديسها- كما هو الحال في العلم النظريّ- بل المقصود الحقيقيّ هو إيقاظ الطاقات الكامنة التي يحملها المريد في داخله، والتي تهيئ له البدايات الصحيحة لسلوك الطريق الصوفيّ (جينو، ٢٠١٣، ص ٧١-٧٢).

والأهلية التي يقصدها رينيه جينو تعني أن يكون لدى المريد رغبة عارمة صادرة عن وجدان باطنيّ في معرفة الله والاتصال به، وفي إفناء ذاته الفانية في ذات الله الباقية؛ إذ إن التصوف في جوهره تجربة روحية تخص الصوفيّ الذي يعاينها ويكابدها، ومصدر هذه المعاناة هو إرادة عارمة من الصوفيّ في أن يتصل بالله عز وجل (صبحيّ، ١٩٨٤، ص ٧٢-٧٣)؛ فإذا كانت هذه الرغبة أو الأهلية- كما يطلق عليها رينيه جينو- غير موجودة، لم يتمكن المريد من استكمال الطريق، وإن تحصل بالفعل على كثير من العلوم التي يمكن تحصيلها كسبًا من الخارج.

والشيخ هو الذي يعرف ما إذا كان لدى المريد استعداد أم لا؛ إذ ينبغي للشيخ أن يتأمل حال المريد، ويتفرس فيه، بما لديه من نور الإيمان وقوة العلم والمعرفة، ما يتأتى منه، ومن صلاحيته واستعداده؛ إذ إن من المريدين من يصلح للتعبد فقط وأعمال القوالب؛ فيسلك طريق الأبرار، أما المريد الذي يكون لديه استعداد للقرب والسلوك، ومعاملات القلوب؛ فيسلك طريق لمريدين المقربين (السهروردي، ٢٠٠٠، ص ٢١٨)؛ فالشيخ يضع المريد موضع التفرس والاختيار مدة طويلة؛ لكي يراقب سلوكه الشخصيّ، ومدى خدمته له، ويرى هل يتطابق ظاهره مع باطنه أم لا، ويصل به إلى أن يكون مقبولًا في الطريق (أبو ريان، ٢٠١١، ص ١١٢)؛ لذلك أكد رينيه جينو أهمية أن ينتسب المريد إلى شيخ يعلمه أصول الطريقة.

٢-الارتباط بالسلسلة الروحية (الانتساب لطريقة):

ينبه رينيه جينو إلى خطأ من يتخيل أن المرء يمكن أن يربّي نفسه بنفسه "التربية الروحية الذاتية"، بحجة أن الفرد إذا كان مؤهلًا؛ أي عنده الاستعداد الذاتي لقبول التربية الروحية؛ لأنه يحمل مسبقًا في ذاته القدرات التي ينبغي تطويرها؛ ليصل إلى نهاية الطريق الصوفيّ من دون حاجة إلى مساعدة خارجية تتمثل في الارتباط بطريقة صوفية معينة، وبشيخ يعلمه أصول هذه الطريقة (جينو، ٢٠١٤، ص ٢١).

وأرى أن جينو يشير هنا إلى رأي ابن باجة (ت٥٣٣هـ) في "تدبير المتوحد"؛ إذ إن المتوحد عند ابن باجة هو الذي يعيش طبقًا لدواعي العقل في جو من الحرية الخالصة، بعد اعتزال المجتمع، والعكوف على تعليم نفسه بنفسه، إلى أن تصبح نفسه نورًا مشرقًا

تجد راحتها وسعادتها في اتحادها بالواحد مصدر الفيض والنور في هذا العالم (أبو ريان، ٢٠٠٠، ص ٤٩٤)، وكذلك يشير جينو إلى رأي ابن طفيل (٥٨١هـ) في "حي بن يقظان"، الذي يرى أن الإنسان يستطيع من دون معونة خارجية- أي من دون معلم- أن يصل إلى معرفة العالم العلوي، ومعرفة الله، والخلود، وهو في هذا يستمد إلهامه من إشراق العقل الفعال عليه (أبو ريان، ٢٠٠٠، ص ٤٩٧-٤٩٨).

ولكن الأمر ليس بهذه البساطة عند رينيه جينو؛ إذ إن انتساب المريد لطريقة صوفية سوية لها شيخ يعلم أصول هذه الطريقة، يحقق الكثير من المزايا للمريد، منها تهيئة المريد لارتياد الطريق الصوفيّ ظاهريًا وباطنيًا، ويحقيق التهيؤ الظاهريّ باتباع الطقوس العامة التي يلتزم بها كل من أراد الانتساب لهذه الطريقة، والتي يتعلمها المريد عمليًا من الشيخ في بداية الطريق؛ لكي يتجنب الإخفاق والزلل في رحلته الإيمانية، لذلك يقول رينيه جينو: إن " الذين أنيطت بهم أمانة حفظ المعرفة الروحية الباطنية، لا يمكن لهم تبليغها كما يفعله، بكيفية مماثلة تزيد أو تنقص، أستاذ في التعليم العموميّ، يبلغ لتلاميذه صيغًا مرقومة في الكتب، وليس عليهم إلا تخزينها في ذاكرتهم؛ بل المقصود هنا هو أمر في جوهره يتعذر تبليغه بحصر المعنى؛ لأنها أحوال ومقامات؛ فالذي بالإمكان توفيره في هذا الصدد، هو في الجملة مساعدة، أي سند يجعل العمل الذي ينبغي القيام به ميسورًا، وهو أيضًا رقابة تجنب العوائق والأخطار التي يمكن حدوثها، ولكل هذا أهمية كبيرة، والمحروم منه متعرض تمامًا لأن ينتهي إلى إخفاق وخيبة" (جينو، ٢٠١٤، ص ٢٢).

يؤكد رينيه جينو هنا أهمية الدور الذي يؤديه الشيخ للمريد، وقد أكد الصوفية في أكثر من مناسبة هذه الأهمية؛ بل إن بعضهم أوجب أن يكون حال المريد مع الشيخ كحال موسى عليه السلام مع الخضر؛ إذ إن المريد الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه، وترك اختياره للشيخ، وتأدب بآدابه، يسري من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد، كسراج يقتبس من سراج؛ حتى يرتقي المريد من ترك الاختيار مع الشيخ إلى ترك الاختيار مع الله عز وجل، وهنا يمكن أن يفهم المريد من الله ما كان يفهمه الشيخ من الله (السهروردي، ٢٠٠٠، ص ١٠٩-١١٢)، وأيضًا (القشيريّ، ١٩٨٩، ص ٥٣٨).

ويشير أبو القاسم الجنيد (ت ٢٩٧هـ) إلى أهمية ارتباط المريد بالطرق الصوفية بقوله: إن المريد لله بصدق، إذا أراد الله عز وجل به خيرًا: وفقه إلى التعرف على طائفة الصوفية، يهذبون أخلاقه، ويدلونه على تزكية نفسه، وإزالة أخلاقها الذميمة، واستبدالها بالأخلاق الحميدة، ويعرفونه منازل الطريق ومفازاتها، وقواطعها وآفاتها (ابن القيم، ٢٠٠٣، ص ٣٥٠).

والشيخ كذلك عند رينيه جينو هو المرشد الروحيّ للسالك في طريق الحق؛ ينبه إلى مواطن الزلل، ويحذره من عثرات الطريق، إذ إنه سبق أن ارتاد هذا الطريق، وتحمل الصعاب والمشاق، وترقي من حال إلى آخر ومن مقام إلى آخر إلى أن وصل إلى نهاية الطريق؛ لذلك يجب على المريد أن ينتسب إلى شيخ يعلمه أصول الطريقة، ويلتمس منه البركة الروحية التي تعينه على إكمال الطريق، وتيسر له أمر المجاهدة.

٣- المجاهدة

الشرط الثالث من الشروط التي يجب أن تتوافر في التربية الروحية عند رينيه جينو لمن أراد أن يسلك الطرق الصوفيّ هو المجاهدة، والمجاهدة لا تؤتي ثمارها عنده إلا إذا توافر في السالك الشرطان السابقان؛ بمعنى أن يكون لديه استعداد فطريّ يهيئه لسلوك الطريق، وكذلك الانتساب لطريقة صوفية يقوم شيخ الطريقة فيها بإرشاده إلى معالم هذا الطريق ويحذره من العثرات والعقبات التي تكتنفه، وحينئذ فقط يمكن أن يهبه الله تعالى الهداية في طريقه إليه مصداقًا لقول الحق عز وجل: ﴿*وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا* وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت، آية ٦٩)، فيترقى من حال إلى آخر ، ومن مقام إلى آخر فتزول عنه الصفات البشرية الذميمة ويتحلى بالصفات الربانية ويتحقق بها، ويصبح عبدًا ربانيًا (جينو، ٢٠١٤، ص ١٩-٢٠).

وقد أكد الصوفية قيمة المجاهدة في الترقي الروحيّ لهم، ومن أقوالهم في المجاهدة قولهم: إن من زين ظاهره بالمجاهدة، حسن الله سرائره بالمشاهدة، وقال إبراهيم بن أدهم (ت ١٦٩هـ): لن ينال الرجل درجة الصالحين، حتى يجتاز ست عقبات: أولها-أن يغلق باب النعمة، ويفتح باب الشدة، والثاني- أن يغلق باب العزة، ويفتح باب الذل، والثالث- أن يغلق باب الراحة، ويفتح باب الشدة، والرابع- أن يغلق باب النوم، ويفتح

باب السهر، والخامس- أن يغلق باب الغنى، ويفتح باب الفقر، والسادس- أن يغلق باب الأمل، ويفتح باب الاستعداد للرحيل (القشيريّ، ١٩٨٩، ص١٩٠-١٩١).

المجاهدة عند الصوفية ذات أهمية كبرى؛ إنها وسيلة لترقي السالك في طريق الحق من مقام إلى آخر ومن حال إلى آخر، وهي كذلك تهيئ القلب ليكون محلًا لاستقبال المعارف الربانية، بعد أن تتبدل الصفات؛ إذ إن الطريق إلى الله تعالى لا يكون إلا عن طريق التصفية والتجرد من العلائق البدنية (الجزار، ٢٠٠٠، ص ٢٩)، أيضًا (الجزار، ٢٠٠٠، ص ٢٠٢).

ولما كان الحال كذلك فإن رينيه جينو يؤكد على أهمية المجاهدة؛ حتى يرتقي المريد في السلم الروحيّ المكون من المقامات والأحوال؛ وينعم بالمشاهدة، ويتحقق بالكمال، ويتحلى بأنوار المعارف الربانية.

ويمكن القول: إن منهج التربية الروحية السوية لدى رينيه جينو يستلزم تحقق ثلاثة شروط متتابعة: الأول- هو وجود الاستعداد أو الإمكانية لدى المريد؛ أي الصفات الكامنة والمرتبطة بفطرته الطبيعية، وهي المادة الأولى أو " الهيوليّ"؛ التي سوف تُنَمَّى وتُطَوَّر بعد ذلك، والثاني- هو التأثر الروحيّ الذي يسمح للمريد بتطوير وترتيب الإمكانات التي يحملها، وهو لا يتم على الوجه الأكمل إلا بوساطة الانتساب إلى طريقة صوفية لها شيخ يعلم أصول الطريقة، والثالث- المجاهدة، وهي التي يتحقق بها الترقي التدريجي للمريد من مقام إلى آخر، ومن حال إلى آخر إلى أن يصل إلى غايته النهائية وهي التحقق بالكمال (جينو، ٢٠١٤، ص ٢٤)، وأيضًا (عبد العزيز، ١٩٩١، ص ٨٦).

ولما كان الحال كذلك فإني أتفق في الرأي مع رينيه جينو في وجوب توافر تلك الشروط؛ حتى تؤتي التربية الروحية ثمارها، ويصبح المريد صوفيًا متحققًا بالصفات الربانية بعد أن زالت عنه الصفات البشرية.

وينبه رينيه جينو إلى أن المتأمل لأحوال التصوف اليوم يجد أن هذه التربية الروحية فقدت جوهرها الحقيقي ويرجع ذلك إلى عدة أمور منها:-

١-ضعف كفاءات المريد؛ أي ضيق الاستعدادات التي يحملها في ذاتها، ولا يقوم مقامها أي بديل خارجيّ (جينو، ٢٠١٤، ص ٣١).

٢- حالة الضمور والانحطاط التي آل إليها في الوقت الحاليّ بعض الطرق الصوفية، فأمست لا توفر ركيزة كافية لنيل التربية الروحية الفعلية، بل حتى الشعور بوجودها عند من لهم أهلية واستعداد من المريدين (جينو، ٢٠١٤، ص ٣١).

٣- قد لا يكون الشيخ الذي يقوم بتعليم أصول الطريقة للمريدين هو نفسه حائزًا على الكفاءات اللازمة للقيام بهذا الدور، ومن ثمَّ يقتصر دوره هنا على تلقين المريد الأوراد والأذكار المرتبطة بهذه الطريقة من دون تأثير روحيّ وباطنيّ في نفس المريد يهيئه لتلقي الفيوضات الربانية التي تساعده على الترقي الروحيّ (جينو، ٢٠١٤، ص ١١٤).

٤- اهتمام بعض الطرق الصوفية بالمبالغة في الطقوس الشكلية والاحتفالية، وهو ما يشهد على جهل تام بالطبيعة الحقيقية التي يجب أن تكون عليها هذه الطرق من تربية روحية فعّالة للمريدين، ومن ثم أصبح دورها منحصرًا في مظاهر خارجية سطحية، وهو أمر يشكل حاجزًا خطيرًا يعوق تأثير الفعاليات الروحية من أن تأتي ثمارها (جينو، ٢٠١٤، ص ٧١-٧٢).

٥- سعي بعض المريدين إلى امتلاك القدرات الخارقة "الكرامات"؛ إذ يجب على من يعتزم سلوك الطريق الصوفيّ ألا يكون هدفه هو السعي إلى نيل أو تطوير قدرات قد تبدو كأنها خارقة؛ لأنها تشغل تركيزه ووعيه عن إدراك الحقائق العليا؛ بل إن أولئك الحائزين بالفعل على بعض الملكات النفسية الخارقة "الكرامات"، من الضروري أن لا يكترثوا بها، وعدم استعمالها؛ حتى لا يبعدهم ذلك عن العرفان الروحانيّ الحقيقيّ؛ لذلك يقول رينيه جينو: إن "الذين يتوهمون في شأن قيمة هذه القدرات الخارقة إلى حد جعلها علامة على ترقٍ روحيّ، بل حتى على غاية ذلك الترقي، بينما هي،...لا علاقة لها في الحقيقة مع الميدان الروحيّ، وما هي في أكثر الأحيان إلا عائق في طريق الحصول على أي روحانية حقيقية" (جينو، ٢٠١٤، ص ١٣٥-١٣٧).

٦- اعتماد بعض ممن يريد سلوك الطريق الصوفيّ اليوم على مطالعة الكتب ذات المحتوى التربويّ الروحيّ نظريًا، والاستغناء عن الاتصال المباشر بالطرق الصوفية

التي تقدم التربية الروحية بشكل عمليّ ، ولكن في الحقيقة هناك استحالة لمثل هؤلاء في الحصول على تربية روحية حقيقية بوساطة الكتب (جينو، ٢٠١٤، ص ٣٨)؛ لذلك يقول رينيه جينو: "وأخيرًا يجب علينا أن نضيف ملاحظة أخيرة ذات أهمية أساسية في الفهم الصحيح لطابع التصوف الحقيقيّ، وهي أن التصوف ليس بتاتًا مسألة تبحر في علم نظريّ، ولا يمكن أصلًا أن يؤخذ من مطالعة الكتب على طريقة العلوم المألوفة عند عامة الناس؛ بل إن مكتوبات أكابر شيوخ الصوفية أنفسهم لا يمكن أن تستخدم إلا بوصفها رافدًا أو دعامة أو حافزًا للتأمل، والإنسان لا يصير متصوفًا بمجرد قراءتها، بل إنها غالبًا ما تبقى مستعصية على الفهم بالنسبة لمن هم غير مؤهلين" (جينو، ٢٠١٣، ص ٦٢).

وأرى أن رينيه جينو قد أدرك أهمية التربية الروحية السوية في حياة الأفراد والمجتمعات، وخطورة غياب أو إنكار الجانب الروحيّ في حياة الإنسان، اعتمادًا على ما حققته الحضارة الحديثة من إنجازات مادية وحسية؛ لذلك يقرر أنه لا نجاة للأفراد أو المجتمعات إلا بالعودة إلى الحياة الروحية، والتي يُعد التصوف أبرز مظاهرها.

خامسًا- لا نجاة للأفراد أو المجتمعات إلا بعودة الحياة الروحية الحقيقية والتي يُعد التصوف أبرز مظاهرها

يعتقد رينيه جينو أنه لا نجاة للأفراد أو المجتمعات إلا بعودة الحياة الروحية المتمثلة في التمسك بالدين الذي يحتوي على المعارف الحقة؛ إذ إن الشخص الذي لا يلتزم بأي شريعة سوية، لا يمكن أن يحيا إلا حياة غفلة دنيوية بحته، يحصر فيها كل نشاطه الخارجيّ، كما هو الحال لدى الغربيين المعاصرين الذين لا يزالون يزعمون أنهم " متدينون" على الرغم من كونهم يجعلون الدين بمعزل عن نشاطهم، ولا صلة له البتة بواقعهم اليوميّ، وهذا كله في صميمه يعود إلى قبولهم مفهوم وجود ميدانين منفصلين: الأول- هو الميدان الدينيّ، والثاني- الميدان الدنيويّ، والحال عندنا أنه لا وجود في الحقيقة لميدان دنيويّ بمعزل عن الميدان الدينيّ؛ إذ إن ذلك لا يعدو أن يكون مجرد وجهة نظر دنيوية غافلة صادرة عن من الانحطاط الروحيّ للبشرية" (جينو، ٢٠١٣، ص ٣٣).

ويرى رينيه جينو أنه قد ترتب على فصل الدين عن الدنيا أو فصل الجانب الروحيّ عن الجانب الماديّ في حياة الإنسان لدى الغربيين المعاصرين إلى أمور كثيرة جعلت الحضارة الغربية الحديثة عبارة عن حضارة غير سوية مبتورة الروابط عن أصولها الإيمانية، وسوف يؤول بها الحال في نهاية المطاف إلى نهايتها الحتمية المتمثلة في زوالها، ومن بين هذه الأمور: مغالتها في نزعتها الإنسانية، والفوضى الاجتماعية؛ لعدم وجود الصفوة الروحية، واجتياح العقلية الغربية المادية للشرق.

١- المغالاة في النزعة الإنسانية (الفردانية)(*)

المغالاة في النزعة الإنسانية أو كما يطلق عليها جينو (الفردانية)؛ تعني إنكار أي مبدأ أعلى من الفرد، ومن ثمَّ هي اختزال لجميع ميادين الحضارة في نطاق العناصر البشرية الصرفة وحدها، وهي التي أُطلق عليها اسم "النزعة الإنسانية" أو " الأنسنة" في عصر النهضة، وهي نزعة مضادة للتراث الروحيّ، لكن هذه النزعة بقيت محدودة وغير سوية، ولم تنتشر بشكل موسع لتشمل الحضارة كلها، إلا في الغرب في القرون الأخيرة، وأصبحت هذه النزعة طابع العالم في العصر الحديث (جينو، ٢٠١٧، ص ٦٧).

ويؤكد رينيه جينو أن هذه النزعة الفرادنية هي السبب في الانهيار الحاليّ للغرب؛ إذ نجدها تفضي إلى إنكار أي معرفة خارجة عن حدود الإنسان، ومن ثمَّ تنكر ما يكون للإلهام الروحيّ، والوحي الإلهيّ من قيمة في وصول الإنسان إلى المعارف الحقة المتمثلة في الحقائق الإلهية التي أقرها الدين، ومن ثمَّ ينكرون أن تكون للتربية الروحية أي قيمة في وصول الإنسان إلى المعارف الحقيقية (جينو، ٢٠١٧، ص ٦٨).

ولا شك في أن إنكار كل دور للإلهام الروحيّ أو الوحي الإلهيّ في الوصول إلى المعارف الحقة من جانب الغربيين الأوروبيين في العصر الحديث، ورفع العقل البشريّ فوق كل شيء، وهو ملكة بشرية صرفة ونسبية أدى إلى أن يكون هو القسم الأعلى للإدراك؛ بل اختزل هذا الإدراك بتمامة فيه، ونتج عن ذلك ما يسمى النزعة العقلانية،

(*) هو مذهب فلسفيّ يتخذ من الإنسان في حياته الواقعية، ولا سيما الحسية موضوعًا له ، وتطلق هذه الكيفية أيضًا على المذهب الذي يُعْنى بتنمية فكر الإنسان وقدراته وثقافته، كما تطلق على مذهب مفكري النهضة الأوربية في إحياء الآداب القديمة (جينو، ٢٠١٧، هامش ص ٦٧ بقلم المترجم).

والتي تطورت بعد ذلك؛ لينحصر طابعها النظريّ والتأمليّ في دور معاشيّ وعمليّ، بالتناسب مع تغلب التطبيقات العملية على مختلف العلوم، وهذا التطور آل بها إلى أن تحطم نفسها بنفسها؛ وذلك بهيمنة مفاهيم الطبيعة والصيرورة، وأصبح لا مجال هنا للسؤال عن مصدر معرفة حقيقية وكلية؛ بل عن واقع نسبيّ شخصيّ مختزل في النطاق المحسوس وحده، وطابعه الأساسيّ هو التغير وعدم الاستقرار، وهنا أصبح العقل نفسه لا يعد مرجعًا إلا حينما يتوجه نحو تصنيع المادة للأغراض الصناعية، ولم يعد هناك مجال للاعتراف بوجود مصدر روحيّ؛ للوصول إلى المعرفة الحقيقية؛ وذلك لأن المنفعة النسبية حلت محل الحقيقة المطلقة (جينو، ٢٠١٧، ص ٦٩-٧٠).

ويؤكد رينيه جينو أن القول بالفردانية يعني بالضرورة رفض الاعتراف بسلطة أعلى من الفرد، كما يعني رفض الاعتراف بوجود ملكة للمعرفة أسمى من العقل البشريّ، وهذه العقلية المضادة للتراث الروحيّ لا تكون إلا معادية للدين، وهو أمر له خطورته، ويؤدي إلى الانتكاس التام لكل تدرج سوي في مجال القيم الروحية، ويكون ذلك سببًا في انهيار تام، وفناء محقق لهذه الحضارة الممثلة للعالم الغربيّ الحديث (جينو، ٢٠١٧، ص ٧٢-٧٤).

ويلاحظ رينيه جينو أن الغرب في الوقت الحاليّ لم يبق فيه شيء ولا شخص في المكان الصحيح الذي يجب أن يكون فيه، والأفراد لم يعودوا يعترفون بأي سلطة فعلية في الميدان الروحيّ الممثل في الدين ورجاله، وأباح العوام لأنفسهم الجدال في الأمور المقدسة، والاعتراض على طابعها بل حتى على وجودها، وأمسى الأدنى يحكم على الأعلى، والجهل يفرض حدودًا على الحكمة، والخطأ متغلب على الحقيقة، واستبدل ما هو إلهيّ بما هو بشريّ، واستعلت الأرض على السماء، ووضع الفرد نفسه ميزانًا لكل شيء، ويدعي أنه يُمْلي على الكون قوانين مبتدعة بكاملها من عقله النسبيّ المعرض للخطأ، وفي كل مكان لا نرى اليوم في الواقع إلا عميانًا يقودون عميانًا آخرين، وإذا لم يتوقفوا عن فعلهم هذا، فسيهوون بهم حتمًا في الهاوية التي يهلكون فيها جميعًا، وهو أمر كان من الممكن ألا يحدث طالما وجدت معرفة عُليا مصدرها أعلى من الإنسان (جينو، ٢٠١٧، ص ٨٠).

ولما كان الحال كذلك فإن رينيه جينو يرى أنه يجب التحرر من كل ملكة للاستدلال الفكريّ الصادرة عن العقل وحده؛ لأنها أمست عاجزة عن إدراك أي شيء خارج الحدود المفروضة عليها بحكم طبيعتها؛ فما دامت المعرفة صادرة عن العقل وحده، فهي معرفة غير حقيقية، مثل: انعكاس الظلال التي يراها سجناء الكهف عند أفلاطون، والمرور من رؤية الظلال إلى إدراك الحقيقة على ما هي عليها في ذاتها لا يكون إلا بطريقة مباشرة، وهو أمر لا يتحقق بالعقل؛ ولكن بالبصيرة القلبية؛ لأنها هي وحدها المتحررة من القيود المفروضة على العقل بحكم تكوينه، ويمكن القول بعبارة أخرى: إن مركز الوعي والإدراك يجب أن يتحول من العقل إلى القلب، أو من الفكر إلى البصيرة إذا أراد الإنسان الوصول إلى الحقيقة؛ إذ إن أدنى قسط من المعرفة الحقيقية أعظم قيمة بلا مضاهاة من جميع البراهين الاستدلالية التي لا تنشأ إلا من العقل، وهو أمر لا يتحقق إلا بالتربية الروحية (جينو، ٢٠١٤، ص ٢٠٢).

وهنا يؤكد رينيه جينو دور القلب في إدراك المعارف الحقيقية، وبصفة عامة يعتقد الصوفية أن مركز المعرفة الذوقية، وأداتها هو القلب لا العقل، والقلب لا يصبح محلًا للإدراك الذوقيّ، إلا إذا صفت صفحته، وانجلت غشاوته، وارتفعت عنه حجب الشهوة والهوى، وتخلص من تأثير العقل (عفيفيّ،٢٠١٥، ص ٢٥٣-٢٥٥)، وأيضًا (التفتازانيّ، ١٩٩١، ص ١٧٢).

وهكذا يعتقد رينيه جينو أن عدم الاعتراف بسلطة خارجية أعلى من الإنسان أو بالأحرى عقله البشريّ في إدراك الحقائق، يقود البشرية إلى الفوضى التي تنتهي بزوال الحضارة.

٢-غياب الصفوة الروحية والفوضى الاجتماعية

يرى رينيه جينو أن الفوضى تسود المجتمع الغربيّ؛ بسبب غياب التربية الروحية الحقيقية؛ إذ لم يبق أحد في الوضع الحاليّ للمجتمع الغربيّ في الموقع الملائم له بكيفية سوية، وينسجم مع ما لديه من استعدادات فطرية مختصة به؛ وزال التدرج الروحيّ من البناء الاجتماعيّ للمجتمع، والتي كانت التربية الروحية توفرها؛ إذ إن هذه التربية الروحية تراعي أن تكون الفروق الفردية الفطرية لدى الأفراد منسجمة مع جملة

الاستعدادات لديهم؛ مما تجعل كل إنسان مهيئًا للقيام بوظيفة أو عمل معين يتميز به عن غيره، أما الآن فقد أصبح تقلد الوظائف داخل المجتمع لا يخضع لأي قاعدة مشروعة، وقد نتج عن ذلك أن كل شخص وجد نفسه منساقًا لإنجاز أي شيء متاحًا له وَفق ظروف المجتمع، وكثيرًا ما يكون غير متفق مع ما لديه من استعدادات فطرية؛ وأدى هذا الوضع إلى فوضى اجتماعية؛ سببها إنكار الغرب ووجود هذه الفوارق، ومن ثمَّ إنكار كل تدرج روحيّ داخل المجتمع (جينو، ٢٠١٧، ص ٨١-٨٢).

يحاول رينيه جينو هنا أن يقيم نوعًا من المقاربة بين ترتيب الأفراد داخل المجتمع المدنيّ، وترتيب الأفراد داخل المجتمع الروحيّ، إذ يرى أن داخل المجتمع الروحيّ هناك نظامًا يعرف الفرد فيه وظيفته، التي تحدد تبعًا لاستعداداته الفطرية، وتبعًا للمكانة التي وصل إليها باجتهاده في السلم الروحيّ عن طريق المقامات والأحوال، وتجعل القيادة فيه لمن وصل إلى قمة السلم الروحيّ أي للشيخ الصوفيّ الذي سبق له ارتياد الطريق، وهو الذي يقع على عاتقه قيادة الآخرين وإرشادهم إلى الطريق الموصل إلى الغاية المنشودة، وعلى من لم يصل بعد إلى نهاية الطريق السمع والطاعة للشيخ، بينما في المجتمع المدنيّ معيار التدرج فيه هو معيار ماديّ مثل: "التعليم النظريّ الإلزامي" في المدارس والجامعات؛ حيث إتاحة نفس التعليم لجميع الناس، كأنهم جميعًا قادرون على فهم نفس الأشياء على السواء، وكأن نفس مناهج التفهيم تلائمهم بلا أي تمييز بينهم، كذلك "الديمقراطية" التي تتيح لكل الأفراد حق الاشتغال بالسياسة من دون تمييز حقيقيّ بينهم وَفق ملكاتهم الفطرية، وهذه الأشياء أمور مادية متاحة للجميع بصرف النظر عن درجة استعداداتهم وإمكاناتهم الروحية، ويكون التمييز بينهم لمن عنده حظ أوفر من هذه الأشياء المادية، وهو أمر جعل كل فرد في المجتمع لا يلتزم بما هو مهيأ له، وأصبح كل فرد داخل المجتمع يحتل مكانًا غير مناسب لقدراته، ولا يلتزم بما يجب أن يلتزم به، وهو ما يؤدي إلى فوضى اجتماعية وانهيار في تدرج القيم الروحية داخل المجتمع (جينو، ٢٠١٧، ص ٨٢-٨٥).

وعدم وجود التدرج الروحيّ في المجتمع أدى إلى غياب النخبة الحقيقية "الصفوة"؛ التي يمكن أن تقود المجتمع نحو السمو الذي يحافظ على حضارته من الزوال؛ إذ إن

النخبة الحقيقية هي التي تحتل قمة العالم الروحيّ؛ أما حالة الفوضى الموجودة في المجتمع الغربيّ حاليًا فلم تفرز سوى نخبة زائفة؛ لأنها نخبة فكرية عقلية وليست نخبة روحية، وهي نتيجة حتمية لحضارة مادية برمتها(جينو، ٢٠١٧، ص، ٨٩-٩٠).

الصفوة الحقيقية عند رينيه جينو لا يمكن أن تكون سوى صفوة فكرية روحية عرفانية، وفي الوسط الذي ينعدم فيه العرفان الخالص لا يمكن الوصول إلى مثل هذه الصفوة؛ مما يدفع المجتمع إلى ابتداع صفوات زائفة متعددة، تدعي أنها تقوم مقام الصفوة الوحيدة الحقيقية، وهي تعتمد على اعتبارات نسبية وعارضة للتفوق، وجميعها من النمط الماديّ البحت، والنتيجة هي عدم الاستقرار في المجتمع وانتشار الفوضى (جينو، ٢٠١٧، ص ٩٠).

ويؤكد رينيه جينو أنه لا يوجد سبيل للخروج من هذه الفوضى إلا باستعادة التوجه العرفانيّ الروحانيّ، الذي يتلوه إعادة تكوين صفوة حقيقية تفرزها التربية الروحية الموروثة من جيل إلى آخر، والتي لا يمكن ارتجالها، ولا يمكن أن يقوم مقامها أي تفوق ماديّ وعقليّ إلا بمقدار منقوص وضعيف جدًا، لا يؤدي إلى أي تقدم يذكر؛ بل إن جهودها تكون مشتتة، وكثيرًا ما تهيم في متاهات؛ بسبب غياب المبادئ العُليا والتوجه المذهبيّ العقديّ المتمثل في الدين (جينو، ٢٠١٧، ص٩١).

ولما كان الحال كذلك فإني أرى أن رينيه جينو يؤكد دور الصفوة الروحية في قيادة الجماهير العريضة نحو التخلص من الفوضى التي سببتها العقلية الغربية الحديثة، والتي أنكرت أي دور للعقيدة الدينية في تقدم المجتمع، والنخبة الحقيقية الروحية لدى رينيه جينو تتمثل في الصوفية.

٣- اجتياح العقلية الغربية المادية للعالم الشرقيّ

الاجتياح الغربيّ للشرق ليس بجديد، ولكنه كان مقصورًا على السيطرة العسكرية، وكانت آثارها منحصرة في المجال السياسيّ والاقتصاديّ، ومع ذلك بقيت الحياة الروحية الشرقية عصية على اختراقها، واستمرت تلك الحضارات ذات التراث الروحيّ والدينيّ الأصيل سليمة من كل انحراف أراده الغرب لها، ولكن في العصر الحديث ظهر شرقيون متغربون؛ نتيجة تلقي تعليمهم في مدارس وجامعات أوروبا وأمريكا، وقد

تركوا تراثهم الروحيّ وتبنوا كل الضلالات العقلية الغربية الحديثة، وأصبح في الشرق اليوم عقليتان متضادتان: إحداهما تتمسك بتراثها الروحيّ، والأخرى تنزع إلى القوة المادية كما هو الحال في الغرب (جينو، ٢٠١٧، ص ١٠٩-١١١).

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل سيعاني الشرق بفعل العقلية الحديثة أزمة عابرة وسطحية، أم أن الغرب سيجر معه في سقوطه البشرية كلها؟

ويرى رينيه جينو أن الواقع اليوم يظهر أن التفكير الغربيّ الماديّ يكتسح كل شيء، ومع ذلك لا يمكن أن تموت تلك الروح الدينية الأصيلة الموجودة في الشرق، فهي فقط تنسحب من الوجود الظاهريّ في العالم الخارجيّ، وإذا استمر الحال على المنوال نفسه؛ فهذا يعني بداية النهاية للعالم، ولكن مع ذلك إذا ظهرت مرة أخرى الروح الشرقية التي لا تزال تتمسك بالقوة الروحية الملازمة للعقيدة الدينية الأصيلة وتنتصر على العقلية التي تنزع إلى القوة المادية المدمرة، فسوف تقضي عليها وتمحوها كما يمحو النور الظلام، وهذا أمر لا مراء في حدوثه عاجلًا أم آجلًا (جينو، ٢٠١٧، ص ١١١).

وبناء على ذلك أرى أن رينيه جينو يقرر أن السبيل الوحيد للنجاة من الهلاك المحتم سواء للحضارة الغربية أم للعالم كله الذي تأثر بالعقلية المادية الغربية في العصر الحديث هو العودة إلى التمسك بالروح الدينية الأصيلة، سواء أكان ذلك في الشرق أم في الغرب، وهذه المهمة تقع على عاتق الصفوة الروحية فقط؛ والتي تتمثل من وجهة نظره في رجال الصوفية المخلصين.

وجدير بالذكر أن المفكر الإسلاميّ محمد إقبال يذهب إلى رأي قريب من ذلك؛ إذ يقول: إن الإسلام هو القادر على تخليص المسلمين مما أصبحوا عليه من تقهقر وجمود؛ بفضل ما له من العقائد التي انفرد بها، والتي لها تأثيرها الروحيّ الكبير في حياة الأفراد، ويرى إقبال فيها سبيلاً إلى إنقاذ البشرية مما أصابها من خمول روحيّ وانشطار نفسيّ وأَثَرة مادية جارفة؛ فالإسلام دين يعد خير وسيلة لإعداد الإنسان العصريّ إعدادًا خُلقيًا يؤهله لتحمل المسئولية، ويرد إليه إيمانه المسلوب وتوازنه الشخصيّ المفقود، وسط عالم فقد وحدته الروحية؛ إذ إن العالم اليوم أصبح مفتقرًا إلى تجديد فسيولوجيّ، والدين الذي هو في أسمى مظاهره- وهو المظهر الصوفيّ- ليس

عقيدة فقط أو كهنوتًا أو شعيرة من الشعائر هو وحده القادر على إعداد الإنسان العصريّ إعدادًا خلقيًا يؤهله لتحمل التبعة العظمى التي لا بد من أن يتمخض عنها تقدم العلم الحديث، وأن يرد إليه تلك النزعة من الإيمان، التي تجعله قادرًا على الفوز بشخصيته في الحياة الدنيا والاحتفاظ بها في دار البقاء (إقبال، ٢٠١٠، ص ٢٤٥-٢٤٦).

والصفوة الروحية من وجهة نظر جينو لا تزال موجودة في الحضارات الشرقية، وحتى إن زاد انحصارها أمام الاجتياح الغربيّ الحديث، فستبقى على الرغم من ذلك إلى النهاية؛ لأن استمرار وجودها ضروري لحفظ التراث الروحيّ والدينيّ الأصيل؛ من أجل نقله للأجيال القادمة، أما في الغرب فلم يبق للصفوة الروحية وجود في الوقت الحاضر، ولكن توجد علامات على حركة لا تزال غير واضحة بإمكانها أن تؤول إلى إعادة إنشاء صفوة عرفانية جديدة يكون على عاتقها مهمة إنقاذ الحضارة الغربية الحديثة من الهلاك (جينو، ٢٠١٧، ١٢٥).

وهكذا يؤكد رينيه جينو أنه لا نجاة للأفراد أو المجتمعات إلا بعودة الحياة الروحية الحقيقية، والتي يُعد التصوف أبرز مظاهرها، كما أن وجود النخبة الروحية الحقيقية في المجتمع هي التي تدفع عنه خطر الفناء؛ لأن على عاتقها تقع مهمة قيادة الجماهير نحو الوصول إلى المعرفة الحقة التي تسمو على الواقع الماديّ المحسوس المتغير، وتحقق للإنسان السكينة الروحية والطمأنينة القلبية، وهو أمر يساعد الإنسان على السمو الروحيّ فضلًا عن الماديّ؛ ولكن الروحيّ كذلك، ولا يتأتى ذلك إلا بسلوك طريق التصوف، والتربية الروحية هي التي توفر للمريدين الإعداد اللازم له.

ولما كان الحال كذلك فأنني أؤكد على تأثر أفكار وآراء رينيه جينو الروحية بالعقيدة الإسلامية، لاسيما التصوف الإسلاميّ، وهذا يجعله – من وجهة نظري- أحد أهم المستشرقين الفرنسيين الممثلين للجانب الروحيّ في الاستشراق الفرنسيّ.

وفي نهاية هذا البحث توصلت إلى النتائج الآتية

أولًا- أرى أن جينو كان محقًا في انتقاده الحضارة الغربية في ماديتها وإنكارها أي دور للجانب الروحيّ في حياة الإنسان؛ إذ إن التقدم الماديّ الذي أحرزته الحضارة

الغربية الحديثة، لم يجعل الإنسان أكثر سعادة؛ بل جلب معه التعاسة والشقاء في كثير من الأحيان، ويكفي أن نتأمل في التقدم الذي حدث في الصناعات العسكرية، والأسلحة الحربية، وما جلبه ذلك من خراب ودمار لعدد كبير من البشر يقدر بالملايين، وما نلاحظه أيضًا من آثار التغير المناخيّ على دول العالم؛ نتيجة الانبعاثات الحرارية الصادرة عن عمليات التصنيع.

كما أن ذلك التطور الماديّ الهائل قد سلب الإنسان حريته وراحته النفسية، وأصبح الإنسان أسير ذلك التقدم الماديّ، كلما أحس أنه أمتلك ما يحقق له السعادة ورفاهية الحياة، فقد هذا الإحساس سريعًا لظهور أشياء مادية جديدة يعتقد أنها لا يمكن الاستغناء عنها، أصبح الإنسان يفتقد السكينة، وصلاح البال، وهو في سعي محموم لا يتوقف في مضمار الحياة؛ من أجل الحصول على ما اعتقد أن به سعادته، وتناسى أن السعادة الحقة لا تكون في امتلاك الأشياء المادية الزائلة، بل في الزهد فيها، والرغبة فيما عند الله تعالى من حسن المآب، قال تعالى:﴿قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى﴾ (سورة النساء، آية ٧٧).

ثانيًا- يُعد التصوف عند رينيه جينو علمًا باطنيًا حقيقيًا يصل المخلوق بخالقه، والتصوف الإسلاميّ من دون غيرة من أنواع التصوف الأخرى يجمع بين الظاهر والباطن، وهو ليس علمًا نظريًا يكتسب بالتعلم من الخارج، بل هو علم عمليّ؛ وهو غير متاح للجميع؛ بل للصفوة فقط؛ أي لخاصة الخاصة؛ الذين خاضوا لجة الحقائق، ونهلوا من بحار المعارف الربانية؛ فعرفوا الأسرار وتحققوا بكمال الأوصاف، هم الذين تخلقوا بأخلاق الله، فزالت عنهم الصفات البشرية التي تنزع إلى الشر والتدمير، وتحلوا بالصفات الربانية، التي تدعوا إلى الخير وتعمير الأرض، وهم الذين يقع على عاتقهم مهمة إرشاد غيرهم إلى المعرفة الحقة؛ حتى يتحقق للإنسان الهدف المنشود؛ وهو عمارة الأرض، والقرب من الله تعالى، أما العلم الذي لا يتجاوز حدود المادة فهو علم غير حقيقي، ولا يمكن أن يصل عن طريقه إلى المعارف الحقيقية.

ثالثًا- أرى أن مفهوم التصوف عند رينيه جينو يتفق مع ما قاله شيوخ التصوف في هذا الشأن، ويدل ذلك- من وجهة نظري- على دراية كبيرة منه بأحوال القوم؛ بل يمكن

القول: إن رينيه جينو كان متصوفًا ذاق مذاق القوم، وأدرك الكيفية التي يجب أن يكون عليها الصوفيّ مع ربه، وكان نقده الحضارة الغربية الحديثة في ماديتها نابعًا من إدراكه أهمية الجانب الروحيّ في حياة الإنسان بعد تجربة إيمانية روحية خاضها بنفسه؛ لذلك لم يكن رينيه جينو فيلسوفًا مثاليًا حاول تغيير الواقع الغارق في المادية بأفكاره العقلية النظرية؛ ولكن صوفيًا حاول أن يعيد للإنسان إيمانه المسلوب ويؤكد أهمية الجانب الروحيّ في حياة الإنسان، وبقاء الحضارات.

رابعًا– وضع رينيه جينو منهجًا للتربية الروحية يمكِّن المريدين من تنمية استعداداتهم الفطرية؛ من أجل الوصول إلى غايتهم المنشودة من سلوك الطريق الصوفيّ، وهذا المنهج يتكون من ثلاث خطوات متتالية لابد منها، وهي تشمل وجود الاستعداد لدى المريد، والحصول على الإرشاد الروحيّ من شيخ الطريقة، والمجاهدة، وكما بيَّن لنا أهمية الدور الذي تقوم به الطرق الصوفية في هذا الشأن، وحدد بدقة الصعوبات التي تعترض سبيل التربية الروحية السوية في العصر الحديث؛ ودعا إلى إصلاحيها.

خامسًا– يمكن للحضارة الغربية الحديثة النجاة من هلاك محتوم؛ بسبب ماديتها الجارفة، إذا عادت إلى الإيمان مرة أخرى بأهمية الحياة الروحية في حياة الإنسان، ووسيلة ذلك عند رينيه جينو هو تكوين الصفوة الروحية الحقيقية القادرة على قيادة الجماهير العريضة نحو المعارف الحقيقية التي تربط الجانب الماديّ والجانب الروحيّ في حياة الإنسان كما تصل بين الحق والخلق.

سادسًا– يتفق رينيه جينو في الرأي مع محمد إقبال في أن اتجاه الحضارة الغربية إلى التفكير العقليّ الخالص أو ما يسمى بالعقلانية أدى إلى تقدم في المجال الماديّ كان على حساب الجانب الروحيّ في حياة الإنسان، وهو تقدم لم يتحقق منه أي راحة وسعادة حقيقية للإنسانية؛ بل كان مصدر ألم وشقاء لها، ولا سبيل إلى استعادة الإنسان توازنه المفقود بين الجانب الماديّ والجانب الروحيّ في حياته إلا بالرجوع إلى الإيمان الدينيّ، والذي يُعد التصوف الإسلاميّ أهم الطرق الموصلة إليه.

سابعًا– يمكن الإفادة من آراء رينيه جينو الروحية في الوقت الحاليّ، عن طريق تعميق المفاهيم الروحية والدينية لدى الأفراد، وعدم الانسياق وراء كل تقدم ماديّ تكون

أضراره أعظم من منافعه، والدعوة إلى إقامة توازن بين ما هو ماديّ وبين ما هو روحيّ في حياة الإنسان، حتى ينعم الإنسان بالسكينة النفسية، والطمأنينة القلبية في حياته الدنيا، وينال حسن الثواب في الآخرة؛ فتكون السعادة في الدارين نصيبًا له.

المصادر والمراجع موثقة بطريقة (APA)

١-أبو ريان، محمد علي، (٢٠٠٠): تاريخ الفكر الفلسفيّ في الإسلام، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

٢-أبو ريان، محمد علي، (٢٠١١): الحركة الصوفية في الإسلام، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

٣-ابن القيم، شمس الدين محمد بن أبي بكر، (٢٠٠٣): مدارج السالكين، تحقيق وتعليق محمد المعتصم بالله البغداديّ، جـ/٢، ط/٧، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربيّ.

٤-إقبال، محمد، (٢٠١٠): تجديد التفكير الدينيّ في الإسلام، ترجمة عباس محمود، تقديم مصطفى لبيب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٥-التفتازانيّ، أبو الوفا الغنيميّ، (١٩٩١): مدخل إلى التصوف الإسلاميّ، ط/٣، القاهرة، دار الثقافة.

٦-الجزار، أحمد محمود، (٢٠٠٠): فخر الدين الرازيّ والتصوف، الإسكندرية، منشأة المعارف.

٧-الجزار، أحمد محمود، (٢٠٠٠): المعرفة عند أبي سعيد بن أبي الخير، الإسكندرية، منشأة المعارف.

٨-جعفر، محمد كمال إبراهيم، (٢٠٠٧): التصوف "طريقًا وتجربة، ومذهبًا"، القاهرة، دار الكتب الجامعية.

٩-جينو، رينيه، (٢٠١٧): أزمة العالم الحديث للشيخ عبد الواحد يحيى، ترجمة عبد الباقي مفتاح، ط/١، مدينة إربد، الأردن، عالم الكتب الحديث.

١٠- جينو، رينيه، (٢٠١٤): التربية والتحقق الروحيّ للشيخ عبد الواحد يحيى، ترجمة عبد الباقي مفتاح، ط/١، مدينة إربد، الأردن، عالم الكتب الحديث.

١١- جينو، رينيه، (٢٠١٣): التصوف الإسلاميّ المقارن للشيخ عبد الواحد يحيى، ترجمة عبد الباقي مفتاح، ط/١، مدينة إربد، الأردن، عالم الكتب الحديث.
١٢- جينو، رينيه، (٢٠١٤): رموز العلم المقدس للشيخ عبد الواحد يحيى، ترجمة عبد الباقي مفتاح، ط/١، مدينة إربد، الأردن، عالم الكتب الحديث.
١٣- جينو، رينيه، (٢٠١٦): شرق وغرب للشيخ عبد الواحد يحيى، ترجمة عبد الباقي مفتاح، ط/١، مدينة إربد، الأردن، عالم الكتب الحديث.
١٤- جينو، رينيه، (٢٠١٤): نظرات في التربية الروحية للشيخ عبد الواحد يحيى، ترجمة عبد الباقي مفتاح، ط/١، مدينة إربد، الأردن، عالم الكتب الحديث.
١٥- جينو، رينيه، (٢٠١٣): هيمنة الكم وعلامات آخر الزمان للشيخ عبد الواحد يحيى، ترجمة عبد الباقي مفتاح، ط/١، مدينة إربد، الأردن، عالم الكتب الحديث.
١٦- السُلميّ، أبو عبد الرحمن، (١٩٨٩): طبقات الصوفية، ط/٣، تحقيق أحمد الشرباصيّ، القاهرة، مؤسسة دار الشعب.
١٧- السهروورديّ، شهاب الدين، (٢٠٠٠): عوارف المعارف، جـ/١، ٢ ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف، القاهرة، دار المعارف.
١٨- صبحيّ، أحمد محمود، (١٩٨٤): التصوف إيجابياته وسلبياته، القاهرة، دار المعارف.
١٩- عبد العزيز، زينب، (١٩٩٦): مقالات من رينيه جينو (الشيخ عبد الواحد يحيى)، ط/١، القاهرة الأنصار.
٢٠- الطوسيّ، أبو النصر السراج، (١٩٦٠): اللُمَع، حققه وقدم له الدكتور عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، القاهرة، دار الكتب الحديثة.
٢١- عفيفي، أبو العلا، (٢٠١٥): التصوف الثورة الروحية في الإسلام، بيروت، دار الشعب.
٢٢- عون، فيصل بدير، (١٩٨٣): التصوف الإسلاميّ، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت.
٢٣- الغزاليّ، أبو حامد محمد، (٢٠١٤): المنقذ من الضلال، تحقيق الدكتور جميل صليبا، والدكتور كامل عياد، بيروت دار الأندلس.

٢٤- القشيريّ، أبو القاسم، (١٩٨٩): الرسالة القشيرية، تحقيق الإمام عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، القاهرة، دار الشعب.

٢٥- محمود، عبد الحليم، (١٩٧٣): أوروبا والإسلام، القاهرة، مطابع الأهرام.

٢٦- محمود، عبد الحليم، (١٩٨٩): التفكير الفلسفيّ في الإسلام، ط/٢، القاهرة، دار المعارف.

٢٧- محمود، عبد الحليم، (١٩٩٩): قضية التصوف "المدرسة الشاذلية"، ط/٣، القاهرة، دار المعارف.

٢٨- الهجويريّ، أبو الحسن علي بن عثمان، (١٩٧٤): كشف المحجوب، دارسة وتقيق دكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل، القاهرة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.